مفهوم "النص المترابط"
في النقد الرقمي المغربي المعاصر

محمد الطاهري
طالب باحث بسلك الدكتوراه
جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
المغرب

الدكتور إبراهيم عمري
أستاذ التعليم العالي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
المغرب

ملخص:

في هذا المقالة، سنحاول تسليط الضوء على مفهوم "النص المترابط" دون الخوض في مسألة التعريفات والأسماء، والكشف عن تجربة النقد الأدبي الرقمي وانفتاح النقاد المغاربة على البيئة الرقمية وظهور النصوص التي يجمع مؤلفوها بين الأدبي والتقني. وسنركز أيضًا على الناقدة المغربية زهور غرام، حيث لاحظنا في تجربتها تدرجًا في مستويات النقد بالتوازي مع الإبداع الرقمي الذي يزخر به المجال الأدبي.

تُعتبر زهور غرام من بين أول الباحثين الذين اقتربوا من إبداعات المرأة ومواضيعها الجديدة ذات الاهتمام الفكري والمعرفي المتعلق بالكتابة الإبداعية. بالإضافة إلى كل ذلك، فهي من أهم النقاد الذين دخلوا مجال الكتابة عن الأدب الرقمي وتأسيس مبادئ النقد في هذا المجال رغم الصعوبات التي واجهتها، سواء في الجامعات المغربية أو بين الباحثين، مع بعض الاستثناءات.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الطاهري، محمد. عمري، إبراهيم. (2024، أكتوبر). مفهوم النص المترابط في النقد الرقمي المغربي المعاصر. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 361-374.

Abstract:

In this paper, we will try to shed light on the concept of the hypertext without delving into the issue of definitions and names, but rather revealing what Moroccan digital criticism has become with the openness of Moroccan critics to the digital environment and the emergence of the texts whose creators combine the literary and the technical. We will also focus on the Moroccan critic Zhor goram, as we have noticed in her experience a gradation in the levels of criticism in parallel with the digital creativity that the literary area is full of.

Zhor Gorram is considered to be one of the first researchers to approach women's contributions, creativity, and renewed intellectual and cognitive concerns related to creative writing. In addition to all of this, she is one of the most important critics who entered the area of writing about digital literature and establishing the foundations of criticism in this field despite the difficulties she faced, whether in the Moroccan universities or among researchers, with some exceptions.

مقدمة

كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن رحلة الأدب إلى عوالم الأجهزة الرقمية، وتناسلت الآراء بين مؤيّد ومعارض وأقيمت الندوات والورشات، واختلف النقاد حول المولود الجديد الذي وسمه البعض بالأدب الرقمي أو السيبراني أو الإلكتروني وغيرها من التسميات التي لا تكاد تكفّ عن التناسل آخذة في الحسبان اختلاف الأجهزة الرقمية. وللوهلة الأولى بدت تكنولوجيا المعلوميات غير قادرة على احتواء الإرث الثقافي والفني الذي وُلد مع ظهور الطباعة، وتزايد القلق حيال عدم القدرة على التعامل الأمثل مع الزخم الهائل من النصوص التي ما فتئ يطالعنا بها العالم الرقمي. بيد إن أي مرحلة انتقالية تتطلب عشرات السنين كي يتكيّف المرء مع الظواهر التي ترافقها؛ إذ احتاج الناس إلى سنوات طويلة لينتقلوا من الشفهي إلى الكتابي، وهذا ما وقع مع النص المطبوع، ولن يختلف الأمر مع اندماج النص بالتقنية.

وإذا كان الأدب الرقمي إبداعاً قد نشأ وترعرع على الضفة الأخرى من الأطلسي، فإن النقد والتنظير تختص به ضفة المتوسط المجسّدة في رواد النظرية النقدية الرقمية الفرنسية، نذكر من بينهم: (فيليب بوتز) (Philipe Bootz) و(إيمانويل سوشيي) (Emmanuel Souchier) و(سيرج بوشاردون) (Serge Bouchardon) و(ألكسندرا سايمر) (Alexandra Saemmer) وغيرهم ممن أخذوا على عاتقهم مهمة تقريب خصائص هذا الأدب من المتلقي الأوروبي انطلاقاً من أوجه التقارب التي كثيراً ما نظّر لها أسلافهم البنيويون: (رولان بارث) (Roland Barthes) و(جاك دريدا) (Jacques Derrida) و(جوليا كريستيفا) (Julia Kristeva). فهل سيبقى المبدع والناقد المغربي مستكينا إلى ما وجد عليه آباءه، أم لا سبيل له غير الانخراط في هذه التجربة الجديدة دون مبالاة بحجم الفوارق التكنولوجية والعدة المفهومية التي من شأنها أن تقوّض مسعاه؟ وهل ما تشهده الساحة النقدية المغربية من تجارب رقمية سواء على مستوى الإبداع أو النقد كفيل بالحديث عن وجود نقد رقمي مغربي يوازي نظيره الإبداعي، أم أن الأمر لا يتجاوز حالة انبهار بالتقنية وانقياد وراء كل جديد من شأنه جعل المهرولين إليه في دائرة الأضواء؟

زهوركرام رحلة بين الإبداع والنقد

إننا لا نروم من خلال هذه الدراسة سرد المنجز الرقمي الأدبي المغربي بقدر ما سنركّز على الجانب النقدي، وغايتنا في ذلك هي الوقوف عند تجربة علم من أعلام النقد الأدبي الرقمي، ألا وهي زهور كرام، الروائية والقاصة والناقدة التي تتجاوز شهرتها المغرب والعالم العربي بفضل

انفتاحها على مختلف التظاهرات الأدبية والعلمية التي تعنى بالظاهرة الرقمية وإسهاماتها في التحسيس بضرورة اقتحام مجالاتها. وعلى الرغم مما قد يعتري بحثنا هذا من قصور جراء اقتصارنا على تجربة الروائية المغربية، إلا أن الضرورة تحتّم علينا الاكتفاء بمساهمة واحدة دون تبخيس لأية كتابات أخرى لها قيمتها ولا يمكن أن تكتمل أية قراءة لاحقة لهذا النقد بدونها.

تعتبر زهور كرام من أولى الباحثات اللواتي قاربن إسهامات المرأة وإبداعاتها وانشغالاتها الفكرية والمعرفية المتجددة ذات الصلة بالكتابة الإبداعية. وهي بالإضافة إلى كل ذلك واحدة من أهم الناقدات اللواتي خضن معترك الكتابة حول الأدب الرقمي وإرساء دعائم النقد في هذا المجال بالرغم مما كان يواجهه من ممانعة سواء في الجامعة المغربية أو في أوساط الباحثين والمبدعين مع بعض الاستثناءات. ولعلّ نجاحها المتميز في إصدار مجلة محكّمة[1] تعنى بالكتابات الرقمية، فضلا عن إشرافها على عشرات الأطاريح التي تتناول مواضيع الأدب الرقمي نقداً وتنظيراً وترجمة، سواء في سلك الماستر أو الدكتوراه علاوة على مشاركاتها المتعددة في الندوات والمؤتمرات ذات الصلة، ليتوّج مسارًا حافلاً بالعطاء والتميز، خاصة وأن الناقدة اختارت الخوض في هذا المجال الأدبي متسلّحة بما تشرّبته من خبرة عقدين من الكتابة تنظيراً وإبداعاً ونقداً.

لقد شكّلت زهور كرام إلى جانب نقاد آخرين، من بينهم سعيد يقطين ومحمد أسليم، وغيرهما مدرسة مغربية حملت على عاتقها مهمة تقريب أسس الأدب الرقمي إلى جمهور الأكاديميين والمختصين، بما يسمح بالخوض في تجارب الإبداع والتنظير والنقد. فبدءاً "بالنص المترابط ومستقبل الثقافة العربية" لسعيد يقطين، ومروراً بترجمات محمد أسليم التي جمعها في كتابه "الأدب الرقمي" وانتهاء "بالأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية" لزهور كرام، يتضح وعي هؤلاء الباحثين بأهمية هذا النوع من الأدب الذي لا يمكن إلا أن يجسّد اهتمام الناقد المغربي بالتحولات التي أصبح يشهدها في ظل انصهاره بالمقوم التقني بعيدًا عن مظاهر الانبهار والتعصب لكل ما هو جديد.

وينبع اختيارنا لتجربة الباحثة الأكاديمية (زهور كرام) انطلاقا من الإرث المعرفي والزخم الثقافي الذي رافق انشغالاتها، الأمر الذي أردنا من ورائه إبراز أهم المرجعيات النظرية التي انطلقت منها لإقامة مشروع نقدي أدبي رقمي يعكس خبرة بلغت أوج نضجها في خضم مناخ تلقٍّ رقمي لم يبارح بعد مراحله التجريبية. وتظهر جليّاً ترجمة الإرث النظري للناقدة انطلاقاً من إصداراتها؛ وهي

[1] "روابط رقمية"، وهي سلسلة انطلقت مع مطلع سنة 2018، وتعنى بالثقافة الرقمية ونشر الوعي بالاستعمال التكنولوجي.

مؤلفات تعزز منطق الرؤية التساؤلية للقضايا والإشكالات التي يطرحها الأدب عامة والرقمي خاصة. ونذكر من بين إصداراتها كتاب "السرد النسائي العربي مقاربة في المفهوم والخطاب" (2004)، و"الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية" (2009)، و"نحو الوعي بتحولات السرد الروائي العربي" (2017) وهي الدراسة التي نالت بها جائزة مهرجان "كتارا" للروايات العربية في دورته الثانية في مجال الدراسات التي تعنى بالبحث والنقد الروائي، وكتاب "الإنسانيات والرقميات في عصر ما بعد كورونا" (2020)، وآخرها كتاب السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي (2021)، بالإضافة إلى كتب أخرى فردية وجماعية وروايات تعكس مساراً نقديّاً وإبداعيّاً يتجاوز كل الحدود.

إن المتأمل في تجربة زهور كرام بما هي مشروع نقدي متكامل الأركان تغذّيه سنوات الإبداع والتنظير والبحث الأكاديمي، سيخلص إلى أن الباحثة تؤمن بأن الممارسة النقدية يجب أن تعتمد جهازاً مفهومياً وعدة نظرية مستوحاة من التجربة الشخصية سواء الإبداعية أو التحليلية، ولن يكون انتقالها لحقل الأدب الرقمي إلا بعد تشرّبها لمعرفة عميقة بواقع الظاهرة الأدبية الرقمية. وقد جسّدت هذه التجربة في كتابيها "الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية"[1] و"السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي"[2]؛ وهما كتابان اختزلت فيهما الناقدة رؤيتها لهذا الأدب الجديد وحقيقته باعتباره نظاماً رمزيّاً مختلفاً تتجلّى فيه تمثلات الإنسان في العصر التكنولوجي. ويبدو جليا أن (كرام) تعتمد منطق ربط اللاحق بالسابق، فكتابها "السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي" يشكل في واقع الأمر امتداداً للأفكار التي تضمّنها الكتاب الأول "الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية"، وتطويراً لقراءاتها المستمرة للعلاقة بين الأدب والوسائط التكنولوجية[3].

نحو وعي باشتغال الثقافة الرقمية

تشدد الباحثة في أكثر من مناسبة على ضرورة التفكير بجدية في مختلف التحولات التي رافقت الأدب في خضم الثورة المعلوماتية وتطور الوسائط التكنولوجية وتنوعها، ذلك أن مواصلة الخوض في الصراع بين مؤيدي هذا الأدب ومعارضيه بات متجاوزاً وبدون جدوى؛ إن نظرة واحدة

---

[1] كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2009.

[2] كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، دائرة الثقافة، الشارقة. 2021.

[3] ينظر مقدمة كتاب السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي. ويتجلى منطق ارتباط اللاحق بالسابق في أعمال زهور كرام من حيث أنها تتصدر كتابها السالفي الذكر إما بالإشارة إلى التجارب النقدية الأدبية المغربية السابقة أو إلى تجربتها الشخصية نفسها. وفي هذا دليل على أن الناقدة لا تنطلق من فراغ وإنما تجسّد أعمالها مشروعاً نقدياً مغربياً يروم إنتاج وعي نقدي أدبي بالنص الرقمي.

للحقل الأكاديمي وعشرات الأطاريح التي تناقش في هذا المجال، علاوة على حضوره في العديد من الملتقيات والندوات والمعارض والمجلات بالمغرب والعالم العربي كفيل بالخروج بخلاصة مفادها أن الأدب الرقمي ماض في كسب أراض جديدة، وهو لا محالة أدب المستقبل[1]. ولا يمكن بأي حال من الأحوال تصور تغلغل هذا الأدب الجديد في الثقافة العربية على حساب الأدب الورقي كأنه انتصار لشكل أدبي ضد شكل آخر، أو الدفاع عن الجديد، ومعارضة ما أصبح قديماً، أو السعي إلى إقصاء تجارب الممارسة الأدبية بمجرد ظهور ممارسة مختلقة، وإلا فإن ذلك يعني قطيعة مع أهم ثوابت الأدب ألا وهي القدرة على التحول والتطور[2].

ويبدو وعي الناقدة بتأثير المتغيرات الثقافية والعلمية من خلال تأطيرها لكتابها السالفي الذكر، ولو أننا نعتبر كتابها "الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية" بمثابة لبنة أرست بها الناقدة أسس دراستها النظرية لسيرورة أدبية عبرت محطات عديدة لترسو بميناء الرقمي، معيدة بذلك النظر في مفاهيم من قبيل المؤلف والقارئ والنص. إنها حالة انتقال وتحول تقتضي تريثاً واعيًا. فالأدب شرع في مغادرة لغته التي تحصن بها زمنا طويلاً، وانفتح بالتكنولوجيا الحديثة على احتمالات لا يمكن التنبؤ بنتائجها سوى بمساءلة ما تحقق منها. وهو الأمر الذي نجحت الباحثة في ترجمته إلى رؤية تساؤلية تنسجم مع تصور فلسفي للوضعية الجديدة التي ما فتئ يشغلها هذا الأدب. وستتجلى هذه الرؤية التساؤلية في أرقى مظاهرها فيما يأتي بعد ذلك من تساؤلات تأسيسية مسّت جوهره ومدى مشروعيته وإشكالية تجنيسه وخصوصية وسيطه الإلكتروني[3]. وهي في أثناء ذلك كله لا تروم تقديم أجوبة قاطعة ما دامت مفاهيم الأدب الرقمي ذاتها وتصورات منظريه عندنا في طور التشكل. إنها تطمح، قبل ذلك وبعده، إلى توسيع دائرة النقاش حول هذا الأدب الذي فيما نحن نفكر في وضعه الإبستيمي، نطور علاقة تفكيرنا بنظرية الأدب[4].

---

[1] قد يعتقد البعض أن في هذه الفكرة منطق القطيعة، وكأن الرقمي سيقلص دائرة الاهتمام بالأدب المطبوع. والحقيقة أن منطق الاستمرارية مهيمن في كتاب 'السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي"، ينظر الصفحات: 12، 17، 31، 125، حيث وسمت الناقدة محوراً من كتابها بـ "الترابطي استمرار وتطور".

[2] السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص: 20.

[3] عمري (إبراهيم)، الإبداع الأدبي الرقمي بين رحابة التقنية ورعونة النص، ضمن مؤلف جماعي: أبحاث في العلوم الإنسانية والآداب، تنسيق بنعيسى زغبوش، ومصطفى بوعناني، وإبراهيم عمري، منشورات قطب البحث: اللغات، والتواصل، والفنون، فاس 2017.

[4] كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، ص: 46.

يجسد كتاب "السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي" تكريساً للسيرورة الحتمية للأدب من خلال إبراز تجليات الرقمنة وانعكاسات ذلك على عملية التلقي، حيث تنتقل الناقدة بعد اكتمال أركان شقها النظري إلى ركوب مغامرة المقاربة النقدية بنوع من التسلسل في عرض النصوص السردية؛ بأن انطلقت من أعمال ورقية بمنطق ترابطي قبل أن تصل إلى النص الأدبي الترابطي والمتمثل في "محطات" لمحمد اشويكة. وإذ تعضد (كرام) دراستها النظرية بأخرى تحليلية، فهي تعمل بذلك على تطوير منطلقات مشروعها وتعزيز نظرية استمرارية الأدب، لكن هذه المرة، من منطق الترابط الذي يؤسس نظام كثير من النصوص الأدبية الورقية، ويشكل جوهر نظام النص الرقمي. والواقع أن رؤية الناقدة للتقارب بين ترابطية النص الرقمي والتناص يعيد إلى الأذهان عدة تصورات سادت نهاية القرن الماضي وانكبّت على محاولة إيجاد علاقة بين نظريات ما بعد البنيوية ومنطلقات النص المترابط، أو ما اصطُلح عليه بنظرية التقارب (la théorie de la convergence) لصاحبها (جورج لاندو) (Georges London).

يصرّح (لاندو) في مستهل كتابه "Hypertext 3.0":

«إن الأمر الذي نحتاج معه إلى التفكير في طرق جديدة للاشتغال حول هذه النصوص ليس بالمناهج نفسها التي استنفذت مع النص الورقي، وإنما وجب التفكير بمنطق العصر في ظل هيمنة الوسيط التكنولوجي على حياة الأفراد والشعوب، بدرجات متفاوتة، وهو ما انعكس تدريجيا على أشكال التعبير الأدبي، وبالتالي أوجب ضرورة التفكير في طرق مختلفة عن السابق، للاقتراب من الأدب في شكله الجديد، ذلك لأن استمرار التفكير في الأدب وقراءته بالطريقة والمنهج نفسيهما، يعني استمرار التفكير بالتصور نفسه».

الرواية الترابطية بين هاجس التخييل ورهان القراءة التفاعلية

لقد آثرت الرواية منذ نشأتها أن ترتمي في أحضان المحتمل، وأن تتجاوز المنجز منها لتعانق المتوقع والممكن. وظلّت تستشرف دوما أفقاً أرحب للبوح، محتفظة لنفسها بهامش من المناورة والحرية الإبداعية، مشككة بإصرار في نقائها الجنسي وصفائها النوعي. ومن هذا المنظور جرى النظر إلى تحققاتها النصية باعتبارها سلسلة من عمليات البناء والهدم، وفضاء رحبًا للكتابة والمحو. وقد سبق لباختين أن تنبأ بذلك عندما اعتبرها أكثر الأشكال التعبيرية انفتاحاً على المحتمل والممكن، وعلى اللغات والأصوات وأشكال الوعي. وإذا كانت اللغة مادة الأدب الأولى وأسمى أدوات التعبير والتصوير، وتجسيد العوالم التخييلية وتشخيصها لغوياً في النص، فإن انفتاح

الإبداع التخييلي على كل الأشكال التعبيرية بما فيها غير اللفظي يجعلنا نتساءل عن تداعيات تداخل ما هو سيميائي بما هو لغوي على تفاعلية القارئ وتمثّلاته الذهنية ومشاركته الانفعالية؟ فهل يشكّل انتقال النص من سنده الورقي الذي استوطنه مئات السنين إلى السند الرقمي عاملا من عوامل العبث بالنص وتمكينه من بهرجة لا طائل منها؟ كيف يمكن مسايرة تطور النص بفكر لا زال يتوجس من استبداله بعناصر سيميائية تحدّ من الطاقة التخييلية لكل من القارئ والمؤلف نفسه؟ ألا يسمح تزامن اللفظي والسيميائي للقارئ بامتلاك مهارات جديدة تجعل منه قارئاً متعدد الوظائف والمهام؟

كل هذه الأسئلة وأخرى صاغتها (كرام) بفطنة الناقدة التي تغوص في عمق الظاهرة لبسط معالمها واستشراف آفاقها، وهي إذ تنحو هذا التوجه فإنها لا تروم اتخاذ موقف مسبق من هذا التجلّي الرقمي للأدب بقدر ما تدرجه في إطار البناء المعرفي الفلسفي والجمالي لهذه التجربة، ونقل التفكير فيه إلى مستوى مساءلة نظرية الأدب في أبعادها المعرفية والبنائية والنقدية والفلسفية[1]. ذلك أن مساءلة نظرية الأدب هي سؤال عن ماهية الأدب نفسه، خاصة وأن تغيّر الوسيط قد عصف بكل الأفكار والانطباعات المسبقة التي رافقت نظام الأدب[2]. وهو منطق لا يجعل قطيعة، كما أسلفنا الذكر، بين أدب ما قبل المعلوميات وما بعدها، إنما هو استمرارية للإبداع الأدبي بكساء تقني يجعل من نص عهدناه قاراً وجامدًا، نصّاً طيّعاً ومرناً وقابلاً للمناورة ويتداخل فيه ما هو سيميائي بما هو لغوي.

إن حضور الصورة أو المقاطع المرئية والمسموعة في البنية السردية يثير حتماً تساؤلاً عن جدوى هذا الحضور إذا كان النص لوحده يستوفي حدود المعنى، فيعدو إدراج ما دون النص حشو لا طائل منه. والحقيقة أن هذا الأمر يجد صداه لدى شريحة مهمة من القراء الذين ينطلقون من تشبّع واضح بثقافة الورقي، فيعملون على مقاربة النصوص الرقمية بانطباعات مسبقة لا تأخذ بعين الاعتبار تغير الوسيط وانعكاسات ذلك على عملية التلقّي. إن حضور الصورة بوصفها مقابلاً بصريًّا للمقطع النصي، أو نسخة مرئية جاهزة لشخصية من الشخصيات، أو فضاء من فضاءات المحكي، أو مرادفاً يعين عنصراً من موضوعاته التخييلية، على نحو يتم به تقليص سيرورة التداعيات الذهنية للنص، وتعويضها بما يعادلها بصرياً، هو ما يهدد بالفعل تخييلية الإبداع الروائي. بالمقابل فإن ما يضفي قيمة جمالية على النص يخاطب بها حواس القارئ ومخيلته هو

[1] كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، ص 31.

[2] كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص48.

توظيف المقوم اللغوي إلى جانب المؤثرات الصوتية بطريقة متجانسة لا يعوض فيها أحدهما الآخر وإنما يمنحه أبعاداً جديدة يتوارى فيها المعنى ليترك مساحات شاسعة لتكهنات قارئه، فتنوع هذه المؤثرات وغناها الدلالي سيفتحان اختيارات المبدعين الاستبدالية والتركيبية على احتمالات لا حصر لها، ويضعان صيغ مجاورتها أفقيًّا وعموديًّا أمام إمكانات لانهائية. وهو إجراء سينفتح بفضله أفق التخييل في وجه هؤلاء بالقدر نفسه الذي سيستنفر به طاقة القراء الخيالية، دون تقزيم لدور اللغة في الكتابة الرقمية الذي يبقى محوريًّا ضمن عناصر لغوية جديدة تلج النص بمنطقها وآلياتها وطريقة تعبيرها[1].

من التجريبي إلى الترابطي

عمدت زهور كرام إلى أجرأة فعل التفكير عبر العمل على نصوص تجسد منطق الترابطية في الكتابة، فانتقت لهذه الغاية متناً يعبّر عن ثقافة موسوعية وغنىً مفهومي، عملت فيه الباحثة على ربط فعل القراءة بفعل الكتابة، أي بين التفكير والتحليل عبر الاشتغال على نصوص من قبيل: "اعتقال الغابة في زجاجة" لأنيس الرافعي، و"بعيداً عن الضوضاء قريبًا من الصمت" للمغربي محمد برادة، و"مجاز العشق" للسوري نجيب سليمان، و"فهرس" للعراقي سنان أنطوان. كل هذه النصوص تتقاطع في كونها تجريبية قصصية وروائية ورقمية برؤية ترابطية، انتقتها الناقدة بهدف تشخيص مبدأ الاستمرارية في الأدب الذي نادت به في أكثر من موضع من كتابها، من خلال رصد مظاهر الالتقاء والتطور بين الشكلين التجريبي والترابطي. وهي إذ توضّح أن التجريبي يشكل ذاكرة الترابطي، فإنها تلحّ على أن المرور النقدي إلى النص الترابطي مرهون أساساً بمعرفة مسبقة بطريقة عمل النص الأدبي التجريبي، وبعناصره، ومنطق اشتغاله وطبيعة رؤيته للعالم.

وإذا كانت النصوص التجريبية قد شكلت تجربة فريدة من نوعها أربكت الثقافة السردية المعتادة بنمط كتابتها وشكل قراءتها، فإن ظهورها شكل تحدّيّاً كبيرًا أمام النقد السائد ومناهجه وأدواته. لذلك تعتبر (كرام) أن الانكباب على دراسة القصة والرواية التجريبيتين يجب أن يأخذ بعين الاعتبار السيرورة الأدبية وحتمية الاستمرارية، وما يواكبها من تحولات على مستوى المفاهيم وأدوات العمل. فظاهرة التجريب في القصة القصيرة المغربية التي أثارت نقاشات كثيرة كادت أن تعصف بجوهر هذه التجربة حين تم التعامل معها بالأدوات النقدية المألوفة، وتم وصفها بالتغريبية والانقلابية، واختزالها في لعبة خلخلة نظام السرد القصصي. على هذا الأساس فإن كل

[1] كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، ص 28 و50.

مقترب من النصوص التي تعتمد المنطق الترابطي في الكتابة الروائية، معتمداً على المفاهيم السابقة في تناول الأدب وقراءته، وغير مستحضر لمبدأ التطور الذي تعرفه تجربة الأدب، وبدون سند من التجربة السابقة/الحالية للتجريبي، فلا شك أنه سيعتبر التجربة غامضة، وغير مفهومة، وليست لها علاقة بالأدب، وقد يؤدي به الأمر إلى رفضها، والتخلي عن تجربة وصفها وتحليلها. وإجمالاً يمكن اعتبار المنطق الترابطي استمرار للتجريبي في إعادة ترتيب نظام النص الأدبي[1].

القصة والرواية التجريبيتان والمنطق الترابطي

تعزي كرام أسباب انتشار القصة القصيرة في شقها التجريبي إلى عوامل مختلفة، أبرزها: فضاءات الكتابة، وطابعا الاقتصاد والتكثيف اللذان تتميز بهما؛ إذ أتاحت وسائط التواصل الاجتماعي والمواقع والتطبيقات التكنولوجية في العصر الراهن للقراء الإسهام بآرائهم بالتوازي مع زمن الكتابة. بيد أنه بالرغم مما يميز الكتابة في القصة القصيرة من إيجاز وتلخيص وما يلحق هاتين الصفتين من الاستسهال والإغراء من لدن البعض دون اهتمام بمعايير أدبيتها، فإن دور القارئ فيها مركزي؛ فقدرته على التفاعل وتفجير التكثيف وصياغة منطق تسلسلي في فهم النص، هو ما يشكل أدبية هذا الشكل الموجز. وعلى هذا الأساس تكون وظيفية القارئ هي ما يحدد جاهزية النصوص سواء الروائية أو القصصية، ويحقق وضعية التكون المستمر الذي يطبع سيرورتها. وكأن القارئ ينتقل من موقع المتلقي لنظام جاهز إلى متلقّ لنظام نص محتمل، لا ينطلق من ذاكرة نصية سابقة، وإنما يبحث عن ذاكرة من رحم الكتابة. فتشترك الشخصيات والقارئ في تشكيل هذه الذاكرة وإغنائها عبر عقد الصلة بينها على مستوى القراءة، وهو إحساس جديد ينقل القارئ من ثقافة التلقّي إلى ثقافة إنجاز النص.

إن اعتماد النصوص التجريبية على القارئ المحتمل الوجود في قلب بناء النص، باعتباره كائنا نصّياً، راجع بالخصوص إلى طبيعتها الشبكية الترابطية. فهي نصوص تغادر منطق التركيب السردي المتعارف عليه في الوسيط الورقي وتأتي مختلفة، في تركيبها وبنائها، في شخصياتها ولغاتها، لتشبه الزمن الرقمي، حيث لا تخضع لمنطق التحقق إلا مع وجود قارئ يقتحمها ويعبث بها كما يشاء. فيعمل على تذويتها ونقلها من الواقعي إلى المتخيل. إنها حالة يتوارى فيها المؤلف تاركاً مساحة واسعة للقراء ليستنفذوا طاقاتهم التخييلية ويقيموا في زمن الخيال، دون دعم مباشر منه، فهو يكتفي بالتركيز على القصة أكثر من بنائها[2]، ليُنتج نصاً شبهاً بشبكة متداخلة ومتعالقة من

[1] كرام (زهور)، نحو التفكير في منهج أدبي ترابطي، جريدة القدس العربي، 24 أغسطس 2015.

[2] كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص 81.

المحكيات والقصص، تختلف كلياً عن طبيعة السرد الأفقية، وفق منطق ترابطي، وتراهن على تفاعلية القارئ من أجل تحققها، وقدرته على تفجير الاقتضاب، وتوسيع مساحة التكثيف، وتحرير اللغة من اقتصادها وتمديد زمن الحكاية.

السرد الترابطي وفعل القراءة

إذا كانت القراءة في العالم الورقي تُنعَت بأنها تفاعل دينامي بين النص والقارئ، فإن هذه الدينامية لا تظهر إلا بمعناها المجازي فقط. أما على الوسائط الجديدة فإن التفاعل يكون بطريقة حرفية، بجعله معادلا للتفاعل المادي المحض بين مستخدم وحاسوب بغض النظر عن أيّ تفاعل نفسي[1]؛ إذ يتوارى المتلقّي ويحضر فعله التفاعلي، الأمر الذي ينتج عنه قارئ لا تنحصر مهمته فقط في القدرة على تفعيل النص بقراءته قراءة منتجة، وإنما تأليف هذا النص وتحقيقه. ويمكن هنا التفريق بين نوعين من التفاعل بحسب المهمة المنوطة بالقارئ وطبيعة حضوره في عملية التلقي، فنجد التفاعل الذي يتجسّد في درجة مناورة القارئ في النص والمسار الذي يسلكه خلال عملية تنشيط الروابط، كما هو الشأن في نموذج القصة الترابطية "محطّات" للكاتب المغربي محمد اشويكة، ثم التفاعل الذي يرد بصيغة التأليف، كما هو الحال مع رواية "على بعد ميلمتر واحد" للكاتب المغربي عبد الواحد استستو.

صحيح أن القراءات كانت تتعدد بتعدد القراء، إلا أن هذا التعدد كان يصدر دوماً عن بنية خطابية جاهزة وتامة ومنتهية بين دفتي كتاب. ولا يمكن بلوغ نهايتها سوى بعبور متواليتها منذ البداية. والواقع أن هذه البنية لا تشكّل في النص المترابط سوى وجه العملة الأول؛ بحيث نجد الباحثة تميز بين نص المؤلف الذي يضع المبدع عناصره ومواده ضمن ترتيب معين، والنص المقروء الذي ينتجه القارئ بناء على عينة من القرارات[2]. وقد جسّدت الباحثة عمليّاً، عبر هذا التمييز، رغبتها في وضع تجربة القراءة والتأويل في سياقها النسبي بعيداً عن أي حكم مسبق. واثبت فعاليته لحظة تصديها لأعمال كل من (سناجلة) في كتابها "الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية" (ومحمد اشويكة) (وعبد الواحد استيتو) في كتابها "السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي". فمن خلال استنتاجات زهور كرام، يتضح دور المقوم التقني الترابطي الذي لا يتلف دلالة النص في

[1] Archibald,(Samuel). Le texte et la technique, la lecture à l'heure des médias numériques, le Quartanier, collection Erres Essais, 2009 p 29.

[2] كرام (زهور)، الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، ص 53.

سراب اللامتناهي بقدر ما يوسّع هذه الدلالة، فضلا عن أنه لا يلقي بالتجربة في اللامعنى بقدر ما يزكّي المعنى ويغنيه بمنح قسط من سلطة المؤلف إلى القارئ.

الروابط جوهر النص الترابطي

يعتبر الوعي باشتغال النص الترابطي وعي باشتغال أهم مكوناته ألا وهي الروابط، فهي مفاتيح القراءة والنقط التي يأخذ فيها القارئ قسطاً من الراحة قبل تجميع الأفكار والخوض في تجربة قرائية مختلفة، والقفز بين العديد من الأفكار الملهمة دون التقيد بخطة المؤلف التي عادة ما ينسجها ليجعل القارئ يتنقل وفقها مثلما هو الشأن في النص الخطي. على هذا الأساس قد يعتبر البعض أن وجود الروابط يعرقل مهمة القارئ في بناء المعنى بفعل ما قد يترتب عن نقط التوقف من صعوبات على مستوى تجميع الأفكار وترتيبها وبنائها، بل قد تشكّل هذه التوقفات تهديداً لانغمارية القارئ، على اعتبار أن الروابط هي أدوات تباعد بين المقاطع أو النصوص، وتعرقل الانكباب المتواصل على القراءة. والحال إن الأمر مختلف تماماً؛ فبالعودة إلى فلسفة النص المترابط نجده يقوم على فكرة هي على النقيض من أهم خاصية تميز النصوص الورقية، أي الخطية[1]. وما قد يعزز حيرة القارئ هو ما قد يحقق لديه الجمالية المبتغاة؛ فعكس قلب الصفحة، يحتم الرابط على القارئ اتخاذ القرار لمعرفة ما يخبئه، مما يجعل من الرابط وعداً بالمعنى. فهو عنصر توتر؛ إذ لا يمكن اكتشاف النص اللاحق إلا عبر حركة القارئ (أي فعل التنشيط)[2].

وتعتبر (ألكسندرا سايمر) (Alexandra Saemmer)، وهي واحدة من بين أبرز الناقدات الغربيات المهتمات بالنص الرقمي، «أن الرابط أثر التأويل الذي صاغه المؤلف، ذلك أن هذا الأثر يوجد بشكل صريح في النص المولَّد الذي يضم الرابط»[3]. الأمر الذي جعل (كرام) تخصص حيّزاً مهما في كتابيها السالفي الذكر للحديث عن دور الروابط في إضفاء صبغة جمالية على النصوص الترابطية، والذهاب بالإبداع الأدبي إلى أبعد الحدود. فقد شكّل فضاء الروابط في رواية الكاتب الأردني (محمد سناجلة)، عنصراً حيويّاً نجح في تشخيص حوارية النص لغوياً وتقنياً، وأضحت

---

[1] يعتبر تيد نيلسون (Ted Holm Neson) أن النص المترابط إطار فلسفي جديد وقوي يعمل على هيكلة المعرفة وتقديمها، لأن الأفكار، حسب رأيه، لا تتطور بشكل متسلسل وإنما على شكل "دوامات". وهو بهذا الطرح يدحض فكرة أن المعرفة يجب أن تُقدَم على شكل هرم من الحقيقة، في إشارة إلى الطابع الخطي للنصوص.

[2] Saemmer (Alexandra). Rhétorique du texte numérique : Figures de la lecture anticipations des pratiques, Villeurbanne : Presses de L'enssib, cop 2015, vol 1, p 22.

[3] Ibid, p16.

هذه الحوارية ميزة الرواية بدعم من تنوع الروابط المنفتحة على الإيقاع الشعري وعلى دفئ البوح وحميمية الاعتراف المنفلتين من رقيب الذات والمؤسسات، فضلا عن أنها عملت على تشخيص لغة العوالم الافتراضية أدبيا ومحاكاة تمثلاتها باللون والحركة تجسيداً لحالات نفسية وأوضاع إنسانية وجدت في هذه العوالم ما افتقدته في الواقع. أما في نص (اشويكة) "محطات" فقد جاءت الروابط عبارة عن موسوعة من العناوين يبدو للوهلة الأولى أن لا علاقة يمكن نسجها بينها، في محاولة من المؤلف مضاعفة حيرة القارئ وقلقه وشحذ روح المغامرة لديه، والدفع به إلى خوض تجربة قلما صادفها في تجاربه القرائية السابقة.

إن الطريقة التي اصطفت بها العناوين في نص "محطات" تثير حيرة أي قارئ كيفما كانت مرجعيته وخبرته بدواليب النصوص، ذلك أن ما سيضاعف من هذه الحيرة هو أن أي رابط ينشطه القارئ قد يحتوي بدوره على روابط أخرى تؤدي به إلى متاهة قد لا يخرج منها إلا مع آخر رابط ينشّطه. فيكتسي النص صبغة جديدة ويثير لدى قارئه روح المغامرة وحب الاكتشاف[1]. ليحصل القارئ في نهاية تجربة القراءة على نص غير تام في جل الحالات، لكون هذه التجربة قد يصادفها من جهة، التعب من كثرة تنشيط الروابط، أو حالة الضياع التي قد يحس بها وسط المسارات المتشعبة التي تفرضها هندسة الروابط، بحيث يغدو«القارئ، بدوره، موضوعاً جوهرياً، كما أن الكتابة تتحول، في هذا المستوى، إلى ذات تحول القارئ إلى موضوع لها، تعيد اكتشاف حدوده ومفهومه»[2].

خلاصة

هكذا حرصت زهور كرام من خلال اقتحامها مجال النقد الأدبي بشقيه التجريبي والترابطي، على مد مشروعها الإبداعي والنقدي بمقومات التجديد المتواصل بغية الانخراط في مسلسل التحولات التي يشهدها العالم من حولنا. وهي في خضم ذلك تشدد على وجوب التخلص من الأحكام المسبقة التي رافقت ولادة النص الترابطي الرقمي، والانكباب على البحث في زواج النص الأدبي بالوسائط التكنولوجية من خلال نظرية الأدب، باستحضار المقوم التقني باعتباره عنصراً مؤسسا لعلاقة جديدة بين القارئ والمؤلف والنص. وإذا كان التجريب، حسب رأيها، يحمل في ذاته تاريخ تجارب الكتابة الأدبية ويرتوي من خصوصياتها ومقوماتها، فإن تأثيره ممتد في ثقافة الترابطي

[1] كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص: 135-136-137 و140.
[2] كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، ص 144.

الرقمي، على أساس أنه يشكّل ذاكرته، فضلا عن اشتراكهما في منطق خلخلة مفاهيم الأدب التقليدية، وتمكين المدعين من استثمار الإمكانات التقنية للذهاب بالإبداع إلى أبعد الحدود.

إن غرض الباحثة من الخوض في تجارب الأدب التجريبي والترابطي، من خلال الاشتغال على نصوص عربية جسّدت واقع الإنسان العربي بانشغالاته وآلامه ومآسيه، إنما كان لتوضيح فكرة استمرارية الأدب وتطوره وفق التحولات التاريخية والاجتماعية والسياسية. ذلك أن الانتقال من الكتابة الخطية في النص الورقي إلى طريقة جديدة للسرد الترابطي، أتاحت للمؤلفين التعبير عن هذا التداخل التفاعلي الوظيفي بين الواقعي بالتباسه السياسي، والاجتماعي بأفقه الغامض، وبين الخيالي بمساحته التي بدأت تتقلص أمام انفجار الواقع وتشعبه.

لائحة المصادر والمراجع

- كرام (زهور)، الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2009.
- كرام (زهور)، السرد الأدبي من التجريبي إلى الترابطي، دائرة الثقافة، الشارقة. 2021.
- عمري (إبراهيم)، الإبداع الأدبي الرقمي بين رحابة التقنية ورعونة النص، ضمن مؤلف جماعي: أبحاث في العلوم الإنسانية والآداب، تنسيق بنعيسى زغبوش، ومصطفى بوعناني، وإبراهيم عمري، منشورات قطب البحث: اللغات، والتواصل، والفنون، فاس 2017.
- كرام (زهور)، نحو التفكير في منهج أدبي ترابطي، جريدة القدس العربي، 24 أغسطس 2015.

- Archibald,(Samuel). Le texte et la technique, la lecture à l'heure des médias numériques, le Quartanier, collection Erres Essais, 2009.
- Landow (G.PAUL). Hypertexte 3.0, critical theory and new media in an era of globalization, The jhons Hopkins University Press, 2006.
- Saemmer (Alexandra). Rhétorique du texte numérique : Figures de la lecture anticipations des pratiques, Villeurbanne : Presses de L'enssib, cop 2015, vol 1.